٢ – عيد ميلاد غير سعيد

بعد أيام قليلة من لقائى الأول مع ويزمان فى جانكليس ، وجدت نفسى أعود للاسماعيلية للاشتراك فى مفاوضات تجرى هناك بين الوفد المصرى برئاسة الرئيس السادات والوفد الإسرائيلى برئاسة بيجن رئيس وزراء إسرائيل .

كنا ثلاثة – يوم ٢٥ ديسمبر ١٩٧٧ – فى مطار أبو صوير العسكرى ، نائب الرئيس السيد حسنى مبارك ورئيس الوزراء السيد ممدوح سالم وأنا ، فى استقبال الوفد الإسرائيلى المكون من بيجن وديان وزير الخارجية وويزمان وزير الدفاع وآخرين .

كان الاستقبال عادياً بدون أى مراسم . لم يكن فى المطار أعلام أو فرقة موسيقية أو لافتات ترحيب . ويبدو أن هذا الاستقبال العادى لم يتوقعوه ، وكانوا ينتظرون أن نقابل بيجن بالمراسم التى تمت عند استقبال السادات فى القدس . وقد أبدى ويزمان لى هذه الملاحظة ، ونحن فى الطريق إلى الاسماعيلية ، فقد قال لى إنهم استقبلوا السادات فى القدس بكل الاحترام ولكننا استقبلناهم فى مصر بطريقة عادية جداً ، ولم أرد على هذه الملاحظة فقد كان تجاهل الموضوع أفضل .

لقد كانت زيارة السادات للقدس حدثاً من الأحداث التاريخية ، وتمت فى جو إعلامى عالمى مثير . لم يتوقع أحد فى مصر وإسرائيل والعالم أن يقوم رئيس أكبر دولة عربية بمبادرة السلام التى قام بها لدولة إسرائيل ، ولذلك تمت تحت الأضواء المبهرة ، وتوقع الكثيرون أن يتحقق السلام الشامل والعادل لمشكلة الشرق الأوسط نتيجة لها ، ولكن الأحداث والتطورات أثبتت أن ذلك لم يتحقق ، لأن إسرائيل لم تقابل المبادرة

بعمل إيجابى صادق فى اتجاه السلام الشامل العادل لأنه يتعارض مع سياستها وأهدافها فى المنطقة . ولذلك فإن زيارة بيجن لمصر لأول مرة كانت خطوة سياسية عادية قوبلت باستقبال عادى دون مظاهر غير عادية .

نزل من الطائرة بيجن يليه ديان يليه ويزمان . كانت هذه أول مرة أقابل فيها بيجن وديان برغم أنى أعلم عنهما الكثير . وباختصار شديد ، فإن كلا منهما يكن كراهية شديدة للعرب ، والثلاثة – بيجن وديان وويزمان – معروف عنهم أنهم من صقور إسرائيل ويتفقون فى نظرتهم السياسية لمشكلة الصراع العربى الإسرائيلى ويعملون لتحقيق الاستراتيجية العسكرية لإسرائيل ، تلك السياسة وهذه الاستراتيجية التى تضمن لإسرائيل التوسع والتفوق العسكرى وفرض الأمر الواقع على العرب .

لقد تذكرت دور بيجن فى أعمال القتل فى فلسطين وما ارتبط به فى مذبحة دير ياسين عام ١٩٤٨ وتصريحه المشهور بعد حرب يونيو ١٩٦٧ عندما وقف فى البرلمان الإسرائيلى (الكنيست) يقول :

« لن يكون هناك سلام لشعب إسرائيل ولا فى أرض إسرائيل ، ولن يكون هناك سلام للعرب ولا فى أرض العرب ، وسنستمر فى تحرير وطننا وإنقاذ أرضه كلها من نير العرب . وستستمر الحرب بيننا وبينهم حتى لو وقع العرب معنا معاهدة صلح » .

أما ديان فهو القائد الذى انتهت حياته العسكرية فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ بفشل وهزيمة لم يتوقعها . لقد تصور ديان أن إسرائيل حققت الأمن لنفسها نتيجة لحرب يونيو ، وقال وقتها « من كان يحلم بأمن كهذا » . فقد كان يحلم بأن الأمور قد استقرت فى الأراضى العربية المحتلة لصالح إسرائيل ، إلى أن استيقظ يوم السبت السادس من أكتوبر ليجد أن قواتنا المسلحة قد نجحت فى العبور وأن خطه الحصين قد فقد قيمته العسكرية ، وكان ديان أول من طلب انسحاب قواته من خط القناة ، ووصفه رئيس الأركان الإسرائيلى بأنه كان خلال الحرب محطما منهاراً . لقد ألحقت به حرب أكتوبر ضرراً شخصياً كبيراً ، وجاء يلعب الدور السياسى كوزير للخارجية بعد أن حمَّله الإسرائيليون مسئولية الفشل فى تلك الحرب ووجهت له عائلات ضحايا الحرب العبارات المهينة والعنيفة .

وصلنا إلى الاسماعيلية حيث كان الرئيس السادات فى استقبال الوفد الإسرائيلى بالمنزل

الذى يقيم فيه والذى تمت فيه المفاوضات . اتسم اللقاء بالود والابتسامات أمام عدد كبير من مندوبى وسائل الاعلام المحلية والأجنبية الذين احتشدوا فى الاسماعيلية على أمل أن تكون هناك نتائج مثيرة فى اللقاء الثانى بين السادات وبيجن بعد أن تم اللقاء الأول بينهما فى القدس .

أسعدنى أن أجد هناك السيد محمد إبراهم كامل الذى تعين حديثاً وزيراً للخارجية ، فهو رجل وطنى متحمس وله تاريخه فى النضال السياسى فى مصر منذ شبابه . لقد استبشرت به خيراً فى منصبه الجديد الذى يتطلب موقفاً وطنياً صلباً فى معركة سياسية طويلة ومعقدة لا بد أن يخوضها . لقد كان سفيراً لمصر فى جمهورية ألمانيا الاتحادية قبل تعيينه وزيراً للخارجية فى ٢٤ ديسمبر ١٩٧٧ إلى أن استقال فى ١٦ سبتمبر ١٩٧٨ قبل التوقيع على اتفاقيات كامب ديفيد فى ١٧ سبتمبر ١٩٧٨ .

أدى محمد إبراهيم كامل اليمين فى الاسماعيلية أمام الرئيس السادات يوم ٢٥ ديسمبر ، وهو يوم وصول الوفد الإسرائيلى ، وانضم بعدها مباشرة إلى وفد المفاوضات .

انتقلنا إلى حجرة فسيحة حيث جلس الوفدان حول مائدة المفاوضات ، بينما كان السادات وبيجن يجتمعان على إنفراد فى حجرة مجاورة حوالى نصف ساعة خرجا بعدها لتبدأ مفاوضات الاسماعيلية .

كان الجانب الإسرائيلى برئاسة بيجن وعضوية ديان وويزمان وآخرين ، وكان الجانب المصرى برئاسة السادات وعضوية نائب الرئيس حسنى مبارك ورئيس الوزراء ممدوح سالم وأنا بصفتى وزيراً للحربية ووزير الخارجية محمد إبراهيم كامل ووزير الدولة بطرس غالى والدكتور عصمت عبد المجيد والدكتور أسامه الباز وكلاهما من وزارة الخارجية .

عندما دخل السادات وبيجن حجرة المفاوضات – بعد اجتماعهما المنفرد – أعلن بيجن أنه والرئيس السادات اتفقا على تشكيل لجنتين ، الأولى سياسية برئاسة وزيرى الخارجية فى الدولتين وتعقد جلساتها فى القدس ، واللجنة الثانية عسكرية برئاسة وزيرى الدفاع فى الدولتين وتعقد جلساتها فى القاهرة .

افتتح الرئيس السادات الجلسة بالترحيب بالوفد الإسرائيلى ، وقال إن هذا اللقاء على أرض مصر هو للعمل معا على إنهاء معاناة الشعبين ، وأننا نجتمع لنقول للعالم إننا نعمل من أجل السلام حتى تحل المحبة محل الكراهية التى عشنا فيها ثلاثين عاماً . وحتى يكون

لحديثه الطابع الإنسانى ، قال السادات إن تاريخ انعقاد هذا المؤتمر يصادف عيد ميلاده ، وهى فرصة للعمل لوضع حد لآلام الشعبين .

ورد بيجن بكلمة مناسبة أشاد فيها بنضال السادات ، وقدم له التهنئة بعيد ميلاده التاسع والخمسين . وقال إن الإسرائيليين قابلوه أثناء زيارة القدس بقلوبهم وأن تحقيق السلام أصبح مسئولية مشتركة بينهما ، وأنه يرجو أن تنتهى الحروب إلى الأبد .

واستطرد قائلاً : إنه يحمل معه مشروعين ، الأول خاص بالانسحاب من سيناء ، والثانى خاص بالحكم الذاتى فى الضفة الغربية (لم يذكر اسم الضفة الغربية بل أطلق عليها جوديا وسماريا) وغزة . وكان « مشروع السلام الإسرائيلى » مكونا من جزءين .

مشروع السلام الإسرائيلى :

بدأ بيجن مشروعه بشرح الجزء الأول منه – الانسحاب من سيناء – بقراءته من أوراق أمامه باللغة الانجليزية التى يتكلمها بطلاقة ،وكان يضغط على الكلمات لابراز مفهومها ومعناها .

كانت الفكرة المصرية خلال هذه المرحلة من المفاوضات أن يتفق الطرفان على « إعلان مبادىء لتحقيق السلام » ، ومن خلال هذه المبادىء يتم بحث التفاصيل . ولكن بيجن ألقى أمامنا خطابا كتبه وحفظه جيداً مملوءاً بالتفاصيل لم نكن على استعداد لسماعها ، لأنه لم يسبق اتفاقنا على المبادىء .

اقترح بيجن فى مشروعه أن تظل المستوطنات الإسرائيلية الموجودة فى سيناء فى أماكنها ، وهى المستوطنات التى بين رفح والعريش وعلى الشاطىء الغربى لخليج العقبة بين إيلات وشرم الشيخ .

وهنا ظهر الاستياء على وجوه أعضاء الوفد المصرى خصوصاً وأنه سبق مناقشة هذا الاقتراح غير المقبول عندما قدمه ويزمان فى مباحثات جانكليس معى ورفضناه . وتكرر نفس الاقتراح بمعرفة ويزمان مع السادات بالاسماعيلية منذ أيام قليلة مضت ورفضه الرئيس السادات كما رفض أيضاً وجود أى مطارات إسرائيلية فى سيناء . وهنا نظر السادات فى اتجاه ويزمان وكأنه يقول له إنه سبق أن رفض هذا الاقتراح فلماذا يكرره بيجن ؟!

واستمر بيجن فى إلقاء خطابه ذى المذاق المر ، وقال إن المستوطنات المدنية ستكون تحت السيادة المصرية ، وأن وجودها لا يشكل مساساً بسيادة مصر . وأضاف بيجن أنه لا يستطيع ترك هذه المستوطنات بدون وسائل للدفاع عن النفس ، ولذلك تحتفظ إسرائيل بقوات قليلة للغاية لحمايتها ، ويأمل أن يتفهم السيد الرئيس هذا المبدأ الإنسانى .

وأراد بيجن أن يبين أنه قدم تنازلاً وتراجعاً فى سياسة إسرائيل فقال : إن هذا القرار الجديد - من وجهة نظره - يعتبر إلغاء للسياسة التى قررتها الحكومة الإسرائيلية منذ عام ١٩٦٧ والتى تقضى ببقاء هذه المستوطنات فى أماكنها تحت سيطرة إسرائيل ، وأنه هو شخصيا ساهم فى إقرار هذه السياسة عندما كان وزيراً فى حكومة مائير .

واختتم بيجن الجزء الأول من مشروعه للسلام باقتراح أن تظل معاهدة السلام مع مصر سارية المفعول حتى عام ٢٠٠١ يعاد دراستها بعدها .

تحول الملل الذى أصابنا والاستياء الذى ظهر على وجوهنا إلى نفاد للصبر ، وأصبحت النظرات فى العيون تعبر عن نفسها . وأصبح جو قاعة الاجتماعات غير صحى نتيجة لما سمعناه وبعد أن امتلأت القاعة بدخان السجاير التى استهلكناها أثناء الاستماع .

لقد كان معنى مشروع بيجن أنه لا انسحاب إسرائيلى إلى حدودنا الدولية ، وهو أمر يدعو للسخرية . وعندما تدخل الدكتور عصمت عبد المجيد فى الحديث وقال إن قرار مجلس الأمن ٢٤٢ ينص على الانسحاب من الأراضى المحتلة . وأن هذا يعنى بالنسبة لمصر الانسحاب إلى الحدود الدولية بينها وبين فلسطين ، أخذ بيجن يشرح وجهة نظره قائلاً إن مصر حشدت قواتها فى سيناء عام ١٩٦٧ وأغلقت مضيق تيران وكانت تطالب بإلقاء إسرائيل فى البحر وطلبت سحب قوات الطوارىء الدولية من سيناء . وعندما انتهى بيجن من شرحه فسَّر تصرفات مصر حينئذ بأنها كانت حرباً هجومية ، وكانت إسرائيل بالتالى فى حرب دفاعية مشروعة . وهذا يعطيها الحق فى الاحتفاظ بالأراضى التى احتلتها وهى تدافع عن نفسها .

ولكى يؤكد تفسيره ، فقد فتح كتابا كان معه قال عنه أنه لأحد فقهاء القانون الدولى وقرأ منه بعض فقرات تؤيد حق الدولة فى الاحتفاظ بالأراضى المحتلة إذا تم ذلك نتيجة لحرب دفاعية خاضتها .

لقد تجاهل بيجن ما أجمعت عليه كل الآراء من أن حرب يونيو ٦٧ كانت حرباً عدوانية هجومية من جانب إسرائيل ضد ثلاث دول عربية بغرض التوسع واحتلال مزيد من الأراضى العربية . لم تتم مناقشة بيجن فيما قاله لأنه كان غير مقبول شكلاً وموضوعاً بالنسبة للوفد المصرى .

كنا وصلنا إلى أقصى حدود الصبر ، وتنفسنا الصعداء عندما انتهى بيجن من حديثه عن مشروع السلام مع مصر .

لم يشعر بيجن برد الفعل السيىء لدينا ، وواصل الحديث لتفريغ كل ما فى جعبته والانتهاء من قراءة مشروعه ، وكان ذلك هو الجزء الثانى من مشروع السلام الإسرائيلى وهو خاص بالحكم الذاتى للضفة الغربية وغزة .

قال بيجن : إن إسرائيل ترى أن السيادة يجب أن تكون لها على الضفة الغربية وغزة تحت إدعاء أن لها حقوقاً فيها . وطالما أن هناك آخرين – يقصد العرب – يرون خلاف ذلك فإنه يقترح أن يظل موضوع السيادة مفتوحا . واسترسل فى كلامه بنداً بنداً يعطى لإسرائيل كل ما تريده لضمان مباشرة سيطرتها على الضفة الغربية وغزة سياسيا وعسكريا واقتصاديا ، ويعطى للفلسطينيين أعمالاً إدارية ذاتية محدودة لتنظيم شئونهم . ولم يكن فى المشروع الإسرائيلى جديد عما سبق إعلانه من نوايا ضم الضفة الغربية وغزة – عملياً – إلى إسرائيل .

وكان المشروع يقضى بعدم إنشاء دولة فلسطينية ، ولا حق للفلسطينيين فى تقرير مصيرهم ، ويكون للفلسطينيين حق الاختيار بين الجنسية الأردنية والجنسية الإسرائيلية يكون للإسرائيليين حق شراء وتملك الأراضى ، ويتم إلغاء الحكم العسكرى الإسرائيلى فيها على أن تتولى إسرائيل شئون الأمن العام والنظام . وبذلك ينعم – فى رأى إسرائيل – الفلسطينيون لأول مرة بالحكم الذاتى الإدارى .

تكلم الرئيس السادات بإيجاز شديد عن أن مصر عليها التزامات نحو العالم العربى . هذه الالتزامات التى تقررت فى مؤتمر القمة بالرباط وهى الانسحاب الإسرائيلى من الأراضى التى احتلت عام ١٩٦٧ وحل القضية الفلسطينية على أساس الحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى . وطلب الرئيس ضرورة الاتفاق على « إعلان مبادىء السلام » . وكان المشروع المصرى المقترح يتعارض تماما مع مشروع السلام الإسرائيلى ويتمشى تماما مع الشرعية الدولية وقرارات الأمم المتحدة .

ولم يتم الاتفاق على إصدار « إعلان مبادىء السلام » كما لم يتم الاتفاق على إصدار بيان مشترك عن محادثات الاسماعيلية على أن يصدر كل جانب بيانا بوجهة نظره .

وفى صباح اليوم التالى – ٢٦ ديسمبر ١٩٧٧ – عقد مؤتمر صحفى حضره عدد ضخم من رجال الصحافة والاعلام ، أعلن السادات « أننا حققنا تقدما فى موضوع الانسحاب . أما عن القضية الفلسطينية فقد كان موقف مصر هو أن تقوم الدولة الفلسطينية فى الضفة الغربية وغزة ، أما موقف إسرائيل فهو أن العرب الفلسطينيين فى الضفة الغربية يتمتعون بالحكم الذاتى . وقد اختلفنا هنا ، ولكن تم الاتفاق على أن نناقش تلك القضية فى اللجنة السياسية » .

وانتهى مؤتمر الاسماعيلية كما بدأ بتشكيل لجنتين سياسية وعسكرية للمفاوضات ، وكان ذلك هو الانجاز الوحيد الذى تحقق .

لقد كان هذا المؤتمر من أسوأ المؤتمرات التى حضرتها .
كنا نتكلم فى المؤتمر وكأن زيارة السادات للقدس لم تتم ..
وكنا نتحدث فى موضوعات وكأن حرب أكتوبر لم تحدث .
طرح بيجن المشروع الإسرائيلى للسلام ولم يكن مقبولاً منا
وطرح السادات فكرة إصدار إعلان مبادىء السلام ولم يكن مقبولا منهم .
والنتيجة أن المؤتمر كان فاشلاً .

ولقد سجل كارتر رئيس الولايات المتحدة الأمريكية يوم أول يناير ١٩٧٨ فى مذكراته عن هذا الاجتماع ما يلى :

« التقى السادات وبيجن فى الاسماعيلية بعد عيد الميلاد مباشرة ، وقد ورد تقريران متناقضان تمام التناقض فى تقييمهما لهذه المقابلة . فقد قدمها بيجن على أنها نجاح كبير موضحاً أن عدم صدور بيان رسمى عنها لا يعنى عدم إيجابيتها . أما السادات فقد اعتبر النقاش الذى جرى مُخفِقا تماما ، وأنه خطوة إلى الوراء فى المساعى من أجل السلام . وبدا أن زيارة الرئيس السادات إلى القدس لم تنتج الآن شيئاً ، فى ظل غياب أى تقارب حقيقى بين إسرائيل ومصر ، اللهم إلا أنها جعلت مؤتمر جنيف مستحيلاً » .

لقد اعتاد الرئيس الراحل السادات أن يتحدث سنويا إلى الشعب فى عيد ميلاده

عن طريق التليفزيون ، وهو سعيد . وأعتقد أنه أمضى عيد ميلاده فى ذلك العام – ١٩٧٧ – وهو غير سعيد .

وكنا جميعا غير سعداء نتيجة لهذا المؤتمر الفاشل الكئيب .

فلم نتفق على إعلان مبادىء لتحقيق السلام الشامل والعادل فى المنطقة .

ولم نتفق على الانسحاب الإسرائيلى الكامل من سيناء وهو جزء من السلام بين مصر وإسرائيل .

ولم نتفق على إيجاد أساس موضوعى عن الضفة الغربية وغزة وهو جزء من حل المشكلة الفلسطينية .

عدت إلى القاهرة لأستعيد ما قاله الرئيس الراحل السادات فى خطابه أمام البرلمان الإسرائيلى (الكنيست) الذى عبَّر فيه تعبيراً قوياً صريحا عن أسس انهاء النزاع العربى الإسرائيلى بتنفيذ قرارات الأمم المتحدة ومبادىء القانون الدولى وبالتالى يتحقق السلام الشامل والعادل فى المنطقة لصالح كل شعوب المنطقة بما فى ذلك إسرائيل .

والآن ، وبعد مؤتمر الاسماعيلية ، فإن إسرائيل تعمل على تمييع مبادرة السلام بحيث تحقق نفس الأهداف التى رسمتها لنفسها قبل المبادرة .

ووجدت إسرائيل الفرصة سانحة لها للتشدد فى مطالبها ، استغلالاً لرد فعل الدول العربية ضد السادات شخصياً ومبادرته الأمر الذى يرغمه على تقديم تنازلات لإسرائيل حتى يكتب لمبادرته النجاح كما كان يتوقع .

إن مشروع السلام الإسرائيلى الذى قدمه بيجن فى مؤتمرالاسماعيلية أوضح أن إسرائيل تهدف إلى ابتلاع الضفة الغربية وغزة ، وفى نفس الوقت تحقق لنفسها أكبر مكاسب سياسية وعسكرية عند الاتفاق النهائى مع مصر .

لقد كان تقديرى فى ذلك الوقت أن البداية ليست طيبة – سياسياً – وأن النهاية ستكون سيئة – سياسياً وعسكرياً . ومن هنا كان لا بد أن أعطى الاسبقية الأولى للعمل العسكرى كما كنت أعطيه دائما فهو خير ضمان لتحقيق أهدافنا فى تحرير أراضينا .

لا شك أن السياسة تلعب الدور الأول فى أى صراع بين الدول ، والحرب هى امتداد للسياسة بوسائل أخرى ، وقلت لنفسى :

« هل حرب أكتوبر هى آخر الحروب مع إسرائيل ؟ » .

وكان السؤال الذى يراودنى : « هل كان السادات يتوقع ما حدث ؟ » .

لا شك أنه كان يتوقع أن يتفق الجانبان على إعلان مبادى السلام الشامل والعادل ، وأن يتفق الطرفان على مبدأ الانسحاب الكامل من سيناء ، وذلك كرد فعل ابتدائى لزيارة القدس . ثم يلى ذلك بحث التفاصيل فى اللجان المختصة .

ويحكى الكاتب الكبير الأستاذ أحمد بهاء الدين ما دار بينه وبين الرئيس السادات من حديث – قبل مؤتمر الاسماعيلية مباشرة – ومنه تتضح الصورة التى رسمها الرئيس الراحل لنفسه عن الموقف وتوقعاته عن المؤتمر ونتائجه . ومن هذا الحديث الذى أثق فى صدق وأمانة كاتبه يتضح أن الرئيس السادات كان يتوقع شيئاً مختلفاً تماما عما حدث .

وانى استأذن الأستاذ بهاء الدين لأنقل عنه بعض فقرات مما كتبه بالنص[1] .

حلم جميل ووهم كبير :

« أعود إلى سياق ذلك اللقاء مع الرئيس السادات فى استراحة الهرم فى ديسمبر ١٩٧٧ ... كانت أحاديثنا كلها جادة وفى صميم الموضوع مما جاء ذكره فى الأسبوع الماضى . ولكننى سألته سؤالاً غير سياسى عن انطباعاته الشخصية عن إسرائيل كما أتيح له أن يراها وعن الشخصيات التى قابلها ، ووجدت أن هذا السؤال فتح الباب لحديث محبب لديه . فقد شرح لى باسهاب الاستقبال الشعبى الرائع والحماس الذى قابله به الشعب الإسرائيلى الذى اهتزت مشاعره من هول المفاجأة والفرحة ... فقد جاءهم أخيراً قائد أكبر دولة عربية بعد عداء طويل مرير ، وتفتحت أمامهم آمال السلام الواسعة ...

وقال لى الرئيس السادات : إن بيجن رجل صعب وجاف المشاعر ، وأن ديان هو أذكى الجميع وأصرحهم ، وأن أقوى شخصية قابلها كانت جولدا مائير .

وقال لى إنه عاد وأقرب شخص إلى قلبه هو عزر ويزمان ، وقال لى برغم أنه لم يكن فى منصب رسمى (كان وزير الدفاع حينئذ) ، وأن ساقه كانت فى الجبس ويسير بصعوبة متوكئاً على عصا ، فإنه جاء فوراً إلى مقر إقامته فى فندق الملك داود

---

(١) أحمد بهاء الدين – محاوراتى مع السادات – ص ١٦٦ – ١٧٣ .

وحدثه عن تفاؤله الشديد بالسلام المقبل ... ثم مضى مستأنفا الحديث عن ويزمان الذى كان واضحا أنه خلب لبه ، فروى لى أن ويزمان قال له إن أمنيته الوحيدة فى الحياة أن ينجح السلام ، وأن يقضى بقية عمره فى بيت صغير يشتريه فى مدينة الاسكندرية التى يعشقها وفيها أجمل ذكريات شبابه ... كان ويزمان يأتى إلىَّ فى الفندق كل يوم ، وأحياناً مرتين بساقه المثقلة بالجبس ... كان يأتى ليسألنى عن أى طلبات أو رغبات من غير القنوات الرسمية . وعندما كنت أطلب إليه شيئاً ، كان يقول لى بالعربية المصرية التى يجيدها « تؤمر يا ريس » ..

□ □ □

عندما لاحت طائرة الهليوكبتر (التى ستحمله رأسا للاسماعيلية) نهض السادات معى فى الشرفة ومودعا لى ومتجها إلى الهليوكبتر ، وقال لى أهم تصريح بطريقة عفوية وكأنه يتحدث عن بدهية :

الاثنين سأقضيه كله فى عزلة وراحة وتأمل .. ليس عندى أى موعد .

وصباح الثلاثاء سيصل الوفد الإسرائيلى الرسمى إلى الاسماعيلية . سنعقد جلسة فى الصباح وجلسة بعد الغداء (قالها وكأن المباحثات مجرد اجراء شكلى مفروغ من نتيجته مقدما) .

وفى صباح الأربعاء سنعقد أنا وبيجن مؤتمراً صحفياً نعلن فيه مبادىء الاتفاق .

وقبل أن تبدو علىَّ مظاهر الدهشة والبلاهة مرة أخرى لهذه السرعة الخاطفة والبساطة المتناهية ، استطرد السادات ونحن نسير جنبا إلى جنب قائلاً لى :

بعد المؤتمر الصحفى الذى سيذاع على التليفزيون سيسافر بيجن والوفد الإسرائيلى إلى القدس ، وسأحضر رأسا إلى القاهرة فى بيت الجيزة . أنا أريد أن أذهب إلى مجلس الشعب صباح السبت لألقى خطابا أشرح فيه مبادىء الاتفاق وقصته الكاملة ، لأقطع كل الألسنة الطويلة بالنتائج التى سأعلنها .

وإذا لم تكن مضطراً إلى السفر فإننى أحب أن تكتب لى هذا الخطاب . إنه سيكون أهم خطاب فى حياتى السياسية .

صافحنى وهو يقول : سأطلبك فى بيتك وهو قريب من بيتى بمجرد وصولى نهار

الأربعاء ... سيكون لديك بقية يوم الأربعاء ويوم الخميس كله لكتابه الخطاب ، ونراجعه معا يوم الجمعة .

□ □ □

ركبت سيارتى عائداً مع الغروب من سكون صحراء الهرم إلى بيتى والدنيا تدور بى . إننى أشعر بأن الرئيس بالتأكيد صادق مع نفسه فى كل كلمة قالها لى ، فهو ليس محتاجا إلى أن يقول لى شيئاً آخر ، ولكننى غير قادر على أن أصدق أن كل ما يتوقعه سيتحقق . هل ما قاله لى سيتحقق ولو سبعين فى المائة ؟ (فقد تعودت من السادات ميله إلى التفاؤل غير المبنى أحيانا على أساس وميله لسماع الجانب الوردى من الأخبار والأحداث) ... أم أنه ضحية عملية خداع هائلة ، وسيظل هدف إسرائيل عدم اعطاء أى شىء والمناورة وكسب الوقت كما قلت له ؟ أم أنه قد ذهبت به الاحلام بعيدا إلى سحابة غير حقيقية تحت تأثير الوهج الشديد الهائل من الدعاية والاعلام والاهتمام العالمى والتمجيد الدولى فى العالم الغربى بالذات ، وهو العالم الأكثر قوة وجاذبية ولمعانا وبراعة فى التأثير على الرأى العام ... العالم الذى يهمه قبل العوالم الأخرى ؟

□ □ □

وقد حدث بعد ذلك ما هو معروف من مباحثات الاسماعيلية .

وفى صباح الأربعاء كنت جالسا بمفردى فى بيتى أمام شاشة التليفزيون ، أنتظر المؤتمر الصحفى الذى ستعلن فيه مبادىء الاتفاق . وقد ذهل الناس جميعا من هذا المؤتمر ، وصدموا مما رأوه صدمة قاسية .

ولكننى قد لا أبالغ إذا قلت إننى كنت من القليلين الذين صدموا أكثر من غيرهم . فقد كنت أحد الذين استمعوا إلى السادات وهو يرسم الصورة الوردية التى ستتجلى فى هذا المؤتمر . لقد بدا السادات على شاشة التليفزيون وهو جالس بجوار مناحم بيجن وكأنه جسد محنط عاجز عن الحركة ... كان واضحا لى أنه يمر بإحدى أقسى ساعات حياته أمام العالم كله ... فهذا رجل مضطر لاحتمال ما لا يحتمل لأنه حريص على استمرار عملية السلام ، والآخر لا يريد السلام أصلاً ولا يريد إعادة شبر من سيناء .

وأيقنت أن ما كان يتحدث عنه السادات لى قبل أيام هو حلم من الأحلام ووهم كبير وخديعة كبرى، ساقته إليها ثقته المطلقة بالرئيس كارتر وقدراته ووعوده ... وأدركت في الوقت نفسه أن السادات لن يستطيع الخروج من هذا الحلم مهما حدث . وأن التنازلات سوف تتوالى إذا أراد أن يظفر بقطعة صغيرة من هذا الحلم .

وسهَّل عليَّ أن الرئيس السادات ، بعد هذا المؤتمر الصحفي ، لم يعد إلى القاهرة كما كان المفروض أن يفعل ، فلم يعد هناك مبرر لكتابة خطاب والذهاب إلى البرلمان وإلقائه ، إذ ليس هناك ما يقال على الاطلاق ... بدل أن يأتى السادات إلى القاهرة سافر رأساً إلى أسوان » .

□ □ □